الاستسقاء[1]

إنَّ الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسوله، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد:

فاتَّقوا اللَّه – عباد اللَّه – حقَّ التَّقوى، وراقبوه في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

أيُّها المسلمون:

الخلق فقراءُ إلى اللَّه، لا غنى لهم عنه في جميع أحوالهم، يلجئون إليه في الشِّدَّة والرَّخاء، وهو سبحانه واسع حميد، يُعطي من سأله بسخاءٍ مديد، يداه مبسوطتان بالإنفاق، سحَّاءُ اللَّيل والنَّهار، ويكشف كلَّ كربٍ شديد، نجَّا ذا النُّونِ من لُجَجِ البحار وظَلْماءِ القِفار.

---

(١) أُلقيت يوم الخميس، التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة ثلاث وأربعين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النبوي.

مرجوٌّ للعطاء والإحسان؛ سخَّر مع سليمانَ عليه السلام جنوداً من الجنِّ والإنس والطَّير فهم يوزعون، لا راحمَ ولا واسع للعبيد سواه؛ رَحِم أيُّوبَ عليه السلام فكَشف عنه الضُّرَّ وأكرمه بِجَرَادٍ من ذهب، لا مَلْجَأَ ولا مفرَّ منه إلَّا إليه؛ استغاث به نبيُّنا ﷺ في بدرٍ فأغاثه بماءٍ وأنزل جنوداً لم يَرَوها، وهو فارجُ الكربات ومغيثُ اللَّهفات؛ أنزل على نبيِّنا ﷺ أَمْناً بعد خوفٍ في الغار، وهو العالِمُ بالظَّواهر والنِّيَّات، اصطفى من الملائكة رسلاً ومن النَّاس.

مستوٍ على عرشه، كبيرٌ كَوَّن الأكوان ودبَّر الأزمان، وأغشى اللَّيل على النَّهار، مَلِكٌ عظيمٌ يقول للشَّيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، صمدٌ قهَّار، إذا تكلَّم بالوحي أخذت السمواتِ منه رعدةٌ ورجفةٌ شديدة فَرَقاً من الواحد الأحد.

يحبُّ الأوَّاب، ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾، ويتوب على من تاب؛ فتاب على آدم بعد النِّسيان.

قائمٌ بأرزاق جميع المخلوقات؛ فرَزَقَ الطُّيورَ في علوِّ أَوْكَارها، والحيتانَ في بحارها، وأرزاقه دارَّةٌ من السَّماء والأرض على عباده، ﴿قُلۡ

مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، وأغدق عليهم النَّعم والآلاء، ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾، وإذا لَجَأَ العبادُ إليه وشكروه؛ منحهم مزيداً ممَّا نالوه، ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾.

قويٌّ متينٌ، قال للسَّموات وللأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾، لا يُعْجِزه إنزال القَطْر من السَّماء، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ولكن العباد بخطاياهم يَمْنَعون رزقَ اللَّهِ إليهم، قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

وما يُصاب به العباد من القَحْط وقِلَّةِ الأرزاق، إنَّما هو ببعض ذنوبٍ وخطايَا اقترفوها، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، والبُعْدُ عن الاستقامة يَمْنع القَطْر من السَّماء، قال جلَّ شأنه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾، والذي يفوت بارتكاب المعاصي من خَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة أضعافُ ما يحصل من السُّرور واللَّذَّة بها، قال سبحانه: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾، والألم فيمن أسخط ربَّه ومولاه بتدنيس نفسه بالذُّنوب والآثام؛

فمَنَع الرِّزق عن نفسه وعن غيره، ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾.

والمعاصي والذُّنوب مُهْلِكةٌ للأوطان والشُّعوب، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ﴾ أي: قلَّةُ الأرزاق ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، وهي جالبةٌ للشُّرور والمصائب، بها تزول النِّعم وتَحِلُّ النِّقم، ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾، وبسببها تتوالى المِحَن، وتتداعى الفتن ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وبالمعصية تتعسَّر الأمورُ على العاصي، وتُمْحَق بركةُ عُمُره، ويعودُ حامدُه من النَّاس ذامّاً له، وقد توهَّم بعض النَّاس في أمر الذنب إذْ لم يروا تأثيرَه في الحال، وقد يتأخَّرُ تأثيرُه فَينسوا أنَّه من الذَّنب، ولم يَعْلَم أنَّ عقوبةَ الذَّنب تَحِلُّ ولو بعد حين، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾.

ومن عَمِل سوءاً؛ جُزي به، لُعن إبليس وأُهبط من منزل العزِّ بترك سَجدة واحدة، وأُخرج آدمُ من الجنَّة بأَكْلةٍ تناولها، ودخلت امرأةٌ النَّارَ

في هِرَّة حبستها، وبينما رجلٌ يجرُّ إزاره إذ خُسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.

وهوانُ الذَّنب على العاصي من علامة الهلاك، وإذا صَغُر الذَّنب في عين العبد؛ عَظُم عند اللَّه، وصغائر الذُّنوب إذا اجتمعت على الرَّجل أهلكته، قال أنس ﷺ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ» (رواه البخاري).

والذَّنْبُ على الذَّنْبِ يُعْمِي، والمُجَاهَرَةُ به مِنْ أعظمِ الأوزار؛ قال عليه الصَّلاة والسلام: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**» (متفق عليه).

والذَّنب لا يقتصر على ارتكاب المناهي فحسب؛ بل إنَّ التَّقصير في أداء الواجب من جملةِ المآثم، ومن لم يتقدمْ بالطَّاعة فقد تأخَّرَ بالتَّقصير، وَمِنْ أعظم الاغترارِ: التَّمادي في الذُّنوب مع رجاءِ العفوِ من غير ندامة.

وربُّنا سبحانه الرَّؤوف اللَّطيف الحليم، إذا أخطأ العبادُ أنذرهم، فيمنع عنهم القطرَ؛ ليلجؤوا إليه بالاستغفار والإنابة، وإذا كَثُر الاستغفار وصدر عن قلوب مطمئنَّةٍ؛ دفع اللَّه عنها ضروباً من النَّقم، وصرف عنها

صنوفاً من البلايا والمحن، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وأنزل عليهم الخير والرَّحمات، ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وبالاستغفار تُنال السَّعادة ويُعطى كلُّ ذي فضلٍ فضلَه، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، وبالاستغفار يَنْهَمِر المطر من السَّماء فَيَنْعَم الخلق بالقَطْر، ويستبشرون بالزُّروع والأبناء والعيون، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

ومعَ الاستغفارِ لَازِمُوا التَّوبة؛ فلا تَظْلِمُوا خَلْقاً، ولا تُمزِّقوا بالغيبة عِرْضاً، وتَسَامَحُوا وتَرَاحَمُوا، ولا تَشَاحَنُوا ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تَقَاطَعُوا، واحْفَظُوا أموالَكُم مِنْ دَنَسِ المُحرَّماتِ والشُّبُهَات، وأَكثروا من الصَّدقةِ بِكَسْبِكم الحلالَ تُرْزقوا، وأْمُرُوا بالمعروف تُخْصَبُوا، وَانْهَوْا عن المُنْكَر تُنْصَرُوا، وَاسْعَوْا إلى الْتِمَاسِ هِبَاتِ الوهَّاب، فربُّنا كريمٌ ودودٌ، مَنْ لَجَأَ إليه أَعْطَاه، ومَنْ قَرُبَ منه أَدْنَاه، ومَنْ سَأَلَهُ أَرْضَاه

وما ضاق على العباد أمرٌ ولَجَؤُوا إليه؛ إلَّا رَزَقَهُم بغير حسابٍ، ولا عَظُم عليهم خَطْبٌ إلَّا جَعلَ لهم مَعَهُ فَرَجاً قريباً، وأبوابُ فضْلِه وَاسِعةٌ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾، جَعل مع الاستغفار أرزاقاً، ومع الدُّعاءِ عطاءً، ومع الاستكانة سخاءً، فتوجَّهوا إلى اللَّه مُسْتَغْفِرين رَاغِبين، مُؤمِّلين دَاعِين، مُتَوَكِّلين رَاجِين، مُنِيبين تَائِبين؛ تَنَالُوا العَطَايَا من الكريم.

فاللَّهمَّ إنَّا نَسْتَغْفِرُك إنَّك كُنتَ غفَّاراً؛ فأَرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً.

اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الغَنيُّ وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ القَانِطِينَ.

اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمَةٍ لا سُقْيَا عَذَابٍ ولا هَدْمٍ ولا غَرَقٍ ولا بَلَاءٍ، يَا أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا.

﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

واقْلِبُوا أَرْدِيَتَكُم؛ اقْتِدَاءً بِسُنَّةِ نبيِّكم، تَفَاؤُلاً بتغيُّرِ حَالِكُم.